تنظيرُ موقفِ الوحيدِ الحَدّي من المدرسة الأخباريّة

الشيخ د. جعفر المهاجر

(١)

يُعتبرُ الوحيدُ ، الإصفهانيّ المولد ، البهبهانيّ النشأة ، النجفيّ الدراسة ، الكربلائيّ المُستقَرّ أُستاذاً للكُلّ ، ــ يُعتبَرُ بحقّ مُجدّد المدرسة العقليّة الأُصوليّة ، بعد فترةٍ سادت فيها المدرسة الأخباريّة أو كادت ، بفضل أعمال محمد أمين بن محمد شريف الأستراباذي (ت : ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) ومحمد بن الحسن الحرّ العاملي (ت : ١١٠٤ هـ / ١٦٩٣م) . وهما اللذان وليا بالتوالي تنظيرَ المدرسة الأخباريّة تنظيراً شاملاً ، بحيثُ أنّنا لا نجِدُ من بعدهما أي إضافةٍ حقيقيّةٍ إلى أعمالِهما في هذا النطاق . وكان من الآثار العمليّة لجهودِهما أنّ كربلا غدت في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد المركزَ القوي للأخباريّة . وفيها أبرزُ مُمثّليها في ذلك الأوان يوسف بن أحمد ابن عُصفور البحراني (ت : ١١٨٦ هـ / ١٧٢٧ م) ، صاحبُ (الحدائق الناضرة إلى / في أحكام العترة الطاهرة) . ولكنْ فيها أيضاً خصمُها اللدود محمد باقر بن محمد أكمل البهبهاني (ت : ١٢٠٥ أو ٦ هـ / ١٧٩٠ أو ٩١ م) . وفي هذا المُلتقى المكاني تجمّعتْ عناصرُ الصراع بين الاثنين ، صراعاً انتهى بنصرٍ مُؤزّرٍ للبهبهاني وللمدرسة الأُصوليّة العقليّة ، بحيث انزوت المدرسةُ الأخباريّةُ في بقعةٍ ريفيّةٍ في جنوب العراق مُنحتْ اسماً استشهاديّاً ، كأنّما أُريدَ منه أن يُشير إلى ما عانته بعد الهزيمة من مُلاحَقَةٍ قاسية على غير صعيد ، ساقتْ إلى حالةَ احتضارٍ طويل .

(٢)

ثمة ملحوظتان يحسُنُ الإدلاء بهما بين يدي البحث .

ــ الأُولى : الحقُّ أن الفاصلَ العملانيَّ بين المدرستين الأُصوليّة والأخباريّة ليس حَدّاً مستقيماً ، منه ويميناً ــ مثلاً ــ الأُصوليّة ، ومنه ويساراً الأخباريّة . بل هو خطٌّ مُنكَسِرٌ تتداخَلُ فيه المدرستان . ومن أمثلة الأُصوليّ القريب من الأخباريّة الحسن بن زين الدين العاملي . وبالمُقابل يوسف البحراني الأخباري القريب من الأُصوليّة . ومن إمارات ذلك أنّه وضع كتاباً في تقليد

الميت . مع أنّ المفروضَ أنّ فكرةَ التقليد لغير المعصوم ، سواءٌ كان المُقلَّدُ حيّاً أم ميتاً ، مرفوضَةٌ من رأس لدى الأخباريين . وهي فكرةٌ مركزيّة لدى مُنظّرَيها الأسترابادي والحرّ العاملي . والنتيجةُ أنّ هذه النظريّة ، إنْ نحن أخذنا بالاعتبار كافّة عناصِرِها ، ليست تُلزِمُ إلا صاحبيَها . ومن هنا نجِدُ بين الأُصوليين مَن هو قريبٌ من الأخباريّة ، وبين الأخباريين مَن هو قريبٌ من الأُصوليّة . ونحن نرى أن البحرانيّ من هؤلاء .

ــ الثانية : ثمة مَقولَةٌ مسموعَةٌ تزعمُ أنّ النهجَ الذي عُرِفَ فيما بعد بـ (الأخباريّ) هو الأصيل في العمل الفقاهتي الشيعي الإمامي ، وأنّ الأُصوليّ بما فيه من اجتهاد ، أي إنشاءُ الفقيه نصّاً جديداً مُستَنبَطاً ممّا هو عنده دليلٌ شرعيّ ، أمرٌ طارئٌ .

هذا عندنا كلامُ مَن عرفَ شيئاً وغابتْ عنه أشياءُ .

ذلك أنّه في الفترةِ ما بين الإمام المُؤسّس لتمايز الشيعة في فقههم الباقر عليه السلام وبين آخر الأئمة حضوراً علنيّاً الإمام العسكري عليه السلام ، أي مُدة قرن ونصف القرن ، ــ في هذه الفترة كان أولياؤهم ينهلون من المنبع مباشرة ، وما كان من مُقتَضٍ لعمل النُخبة بحيثُ تنهضُ مدارسُ مُتمايزة . نعم كان الجميع مُنهمكين بالتسجيل لِما يأخذونه عن الأئمة . بحيث أنّه في نهاية المطاف كان في يد الجميع ثروةٌ كبيرة من الأحكام ، هي التي ستكون في المستقبل البعيد المادةَ التي سيقعُ الخلاف على طريقة التعامُل بها ، بين أن نأخذَ بها ونستبقيها كما هي (الأخباريّة) ، أو نوظّفُها في استنباط نصٍّ جديد (الأُصوليّة) . أمّا المُهمّةُ المُباشرةُ بعد ختام فترة التسجيل ، فقد كانت نقدَ وتصنيفَ تلك الثروة ابتغاء ضبطِها وتسهيلِ العملِ بها . وتمخّضَ العملُ في هذه المرحلة عن كتابَي (الكافي) و (كتاب مَن لا يحضرُهُ الفقيه) ، اللذين أرادهما مؤلفاهما كافياً للمُكلَّف أو سادّاً للفراغ الذي نشأ بالعجز عن الوُصول إلى الفقيه ، أي الإمام الغائب . وكلاهما منظورٌ واحد مع اختلاف الاسمين .

الذين يزعمون أنّ المدرسة الأخباريّة هي الأكثر أصالةً ينظرون إلى تلك الفترة وإلى ما تمخّضت عنه بحيث أنها لم تصِلْ إلى مُستوى إصدار النص الفقهي (الفتوى). دون أن يلتفتوا إلى أنّ ذلك لم يكُن اختياراً مَبنياً على نظريّة ،

بل على أنّه كان الأمرَ الوحيدَ المُمكنَ بالنسبة لتطوّر عمل النُخبة على ما بين أيديهم من نُصوص ، ابتداءً من التسجيل إلى النقد والتصنيف وانتهاءً بزُبدة المَخْض جاهـزةً في مُتناول المُكلَّف ، أي (الكافي) و (كتابُ مَن لا يحضره الفقيـه) .

أمّا المدرسةُ الأخباريّةُ التي وضع نظريّتَها محمد أمين الأسترابادي بعد زهاء سبعة قرون فهي اختيارٌ مَبنيٌّ على نظريّةٍ ابتدعها من عند نفسِه ، فيها ما هو عن غير سابقة ، سواءٌ في المَنْزَعِ أم الطريق أم الغاية . وذلك فرقٌ فارِقٌ كبير جدّاً عند مَن يُحسِنُ وضعَ الأشياءِ في مواضِعِها .

(٣)

ذلك السّرد البالغ الإيجاز يجلو موضعَ السؤال . وعليه فإنّنا سنصوغَه على النحو التالي :

لماذا وقف الوحيدُ ذلك الموقف الحَدّي من المدرسة الأخباريّة ، فحاربها حرباً لا هوادة فيها. بل وربّى على ذلك تلاميذَه الكثيـرين ، وأبرزهم جعفر الجناجي كاشف الغطاء (ت : ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م) ، الذي كأنّه تسلّمَ السيفَ من أُستاذِه ، ليُتِمَّ ويُكملَ ما بدأ بـه . ثـم كان هو الذي وضـع بيده نقطة الختام عليها ، أي المدرسة الأخباريّة ، فانتهت حيث ذكرنا .

هل لأجل ما في نظريّتها من مُفارَقةٍ فكريّةٍ ألمحنا إليها ؟

لا بُدّ لنا من أن نفرضَ شيئاً من ذلك ، ما دمنا نتحدّثُ عن حوافزِ فقيهٍ كبير . ولكن ذلك لايكفي لتسويغ ما أشرنا إليه من حَدّيّةٍ بالغة ومُطارَدةٍ حثيثة . لو انّ الأمر دار على صِرْفِ خلافٍ فكريّ لربما ، بل الأرجح والمُتعيّن بين أهل العلم ، أن يدورَ وينتهي على صفحات الكُتُب والمُصنّفات .

من هنا نقولُ أن في الأمر عاملاً ثانياً إضافيّاً خفيّاً ، ما من ريبٍ في أنّه مَبنيٌّ في الأساس على الخلاف الفكري ، ولكنّنا نـراه قد تجاوزهُ عمليّاً بمسافةٍ كبيرة . وإنّنا نظنُّ أنّ هذا العامل سياسيّ ، ليس بالمعنى السُلطويّ للكلمة ، وإنّما بمعنى سياسة الأُمور طلباً للمنفعة ودَرْءاً للمفسَدة . ومن المعلوم أنّ الفقهَ العمليّ كلّه من هذا الباب .

(٤)

إنّ الحِراك نحو الاجتهاد ، أي حقّ الفقيه بأن يُنتجَ نصّه الخاصّ به ، قد حصلَ وتطوّرَ دائماً في قلبِ حالةٍ سياسيّة .

فلنتمعّنْ في السّياق السّردي التالي :

من المعلوم أنّ حركةَ الاجتهاد الجِدّيّة قد بدأت واستوتْ على سُوقِها في الحلّة . بعد سلسلةٍ من التهيؤات والإحباطات في بغداد ، التي انتهت مع الشيخ الطوسي في النجف بعد أن تحوّلَ إليها .

السؤال : لماذا نجحتْ الحلّة على يد ابن إدريس والمُحقّق الحلّي ، فيما فشلت فيه بغداد ابن الجُنيد والإسكافي والشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي ؟

الجواب فيما نرى : أنّ الحركة الشيعيّة في بغداد لم تكُنْ تشكو أبداً من فقرٍ بعُظماء الرجال المُهيئين لمثل ما أنجزه رجالات الحلّة . بل إنّ بعضَهم ، ابنَ الجُنيد، قد سار خُطىً واسعة في ذلك الاتجاه . وبدا للحظة أنّه قد اجتاز الصراط من النصّ المنقول إلى النصّ المعمول . ولكنّ أعمالَه على أهميّتِها قد تبخّرت فجأةً وكأنّها لم تكُن. وما ذاك إلا لأنّه ولأنّهم كانوا يعملون في حالة فراغٍ سياسي ، لم يكُن لديهم ولا للبيئة التي يعملون لها أي مشروع أو تحفُز سياسي . فلمَ ولمَن يجتهدون ؟

امّا الحلّة ، حلّة بني مزيَد الأسديين ، فقد نهضت على قاعدة تحالُفٍ عربي ـ كورديّ ، حاملةً أوّلَ مشروع استقلال سياسي شيعي ، عابرٍ للرابطة القبليّة ، عن السُلطة العبّاسيّة البائسة في بغداد . وفي هذا السبيل خاضتْ معارك من كل نوع . فلا غروَ في أن تكونَ أوّلَ مَن حمل راية الاتجاه العقلي الاستنباطي ورفعها عالياً .

من الحلّة تحوّلت الرّايةُ إلى جبل عامل بيدِ تلميذِها النجيب الشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزيني (ق : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م) . لقد كان للشهيد معركته في وطنِه بوجهِ التسلّط التركماني الاجتياحي ، المدعوم من السُلطة المملوكيّة . وللمعارك الشِّداد مُقتضياتها في الفكر . وإذن فما من غَروٍ أيضاً في أن نراه يُحلّي راية الاجتهاد بموقعٍ قياديٍّ للفقيه لأوّل مرّةٍ في تاريخ الفكر الشيعي .

ذلك الفكر هو الذي حملهُ معهم عشراتُ العلماء من أبناء مدرسة الشهيد بهجرتِهم الكثيفة إلى إيران. حيث ازدهر وساهمَ مُساهمةً لا غنى عنها في النهضةً الصفويّة الشّاملة ، أعادتْ إلى هذا القُطر العريق وحدتَه الضائعة . ووضعته في الموقع الذي يستحقُّه بين الأُمم . وما يزال وسيبقى إن شاء الله .

من هنا قُلنا أنّ حركة الاجتهاد نمَتْ وازدهرتْ دائماً في وسطٍ سياسيّ اقتضاها .

(٥)

والآن ، وفي كربلا الوحيد ، يأتي مَن يقول أنّ كلّ هذا الحِراك الفكري ، الذي ساهم فيه وأوصلَهُ إلى موقعهِ العمليّ رجالٌ عُظماء أفذاذ ، وأنّ كلّ ما ترتّب عليه من نتائج عمليّة تقدُّميّة على غير صعيد ، ماهو إلا وهمٌ وقبْضُ الريح . ممّا يعني في الجانب المعنوي إلغاء أكثر المكتبة الشيعيّة ، وفي الجانب العملي ترك الجانب التوجيهي/القيادي للمجتمع مساحةً بيضاءَ ، يملؤها المُغامرون العسكريّون والمُتسلّطون من كلّ صنف ، مثلما كانت إيران مثلاً .

هكذا لم تكُن المدرسةُ الأخباريّةُ التي ناجزها الوحيد مُجرّدَ وُجهة نظرٍ منهجيّة، تُحَلُّ إشكاليّاتُها في ساحة الحوار الفكري وعلى صفحات المُصنّفات. كانت مشروعاً سيؤدّي إنْ ثبتَ إلى إلغاء إنجازاتِ سبعةِ قرونٍ من العمل الشّاقّ ، بناها كبارٌ لايجودُ الدهرُ بأمثالِهم كلّ يوم. صادف ظرفاً سياسيّاً مُناسباً، لاعلاقةَ لـه بأيّ مُقتضٍ فكريّ أو عمليّ، فمضى ينتشرُ حتى قاربَ حدَّ السيطرة . مُنـذِراً التشيّعَ وأهلَهُ بما يُصيبُهُ ويُصيبُهُم في الصميم .

هوذا فيما تدلُّ عليه الدلائل ما دعا الوحيدَ وتلاميذَه من بعدِه ، وعلى رأسهم جعفر الجناجي ، إلى شَنِّ تلك الحرب الضَّروس على الأخباريّة والأخباريين . على أنّني أرجو أن لا يُفهَمَ من هذا التحليل أنّ هؤلاء كانوا ضالعين عن عمْدٍ ورؤيةٍ فيما ستنتهي إليه الأُمور لو أُتيحَ لها ولهم . كلا وحاشا . بل كان منهم علماءُ أجِلاّء كانوا يُحسنون صُنعاً فيما يرون . ولكنّ النتائج الوضعيّة السيئة ستحصلُ قهراً حتى في ظلّ أصفى النوايا .